

الثورة الجزائرية من خلال الفيلم الوثائقي
" سينمائيو الحرية " لسعيد مهداوي
قراءة في المضامين



أ. شرقي هاجر - جامعة مستغانم

إن خارطة الإنتاج السينمائي العالمي عرفت دائما كيف تقول أحداث التاريخ في مرات عديدة، ولا متناهية، حيث أن السينما تكاد تكون الوعاء الأكثر حضورا في احتوائه لتاريخ البشرية، فلم يتوقف فن السينما عن سبر أغوار التاريخ، سواء كانت تسجيلية أم روائية.

يحكي فيلم سينمائيو الحرية الذي ينتمي إلى نوع الفيلم الوثائقي التاريخي قصة أو حكاية شعب ضحى بالنفس والنفس لاستقلال بلده، يغوص في أعماق تاريخ الجزائر الحديث منذ أن وطأت أقدام المعمرين الجزائر، أي في القرن التاسع عشر.

يبدأ الفيلم بعرض صورة الجزائر والجزائري في المخيال الغربي بعد الاحتلال الفرنسي فقد انطلقت الجيوش الفرنسية لاحتلال الجزائر لقناعتها بأنها سوف تفتح عليها طريقا إلى الشرق وثرواته (1) وربما هذا الاعتقاد أدى ببعض الفرنسيين إلى تشبيه الجزائر بالشرق، بكل ركائزه ورواسبه الثقافية، وقد كانت فرنسا عصر ذاك من أهم الدول الأوروبية المعبرة عن روح الغرب وحضارته الحديثة وأشدها تحمسا للتوسع فيما وراء البحار بحثا عن القوة والنفوذ والثروة، أما الجزائر فكانت بموقعها الجغرافي المتميز وبثرواتها الطبيعية الهائلة هدفا مغريا للاحتلال، الذي استهدف الدين والعقيدة للقضاء على الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، وبالتالي تحقيق التوسع الاستعماري الذي كان المحتل يصبو إليه.

لقد كان قادة الجيوش يكتشفون الجزائر وفقا لأفكارهم المسبقة، ووفقا لأهوائهم، ومن هنا كان الجمهور الفرنسي يتلقى الصور مشوهة للغاية، نتيجة لجهل الفنانين والمؤلفين والفاتحين، فأصبحت الجزائر في المخيال الغربي مدينة بانسة وأرض جدد لا شيء فيها غير الجنود والمعازل وأناس همجيون لا يمسون للحضارة بصلة يعيشون في الصحراء ويصارعون السباع والضباع والذئاب والأفاعي.

إن غالبية الفنانين والكتاب الذين قصدوا الجزائر رفقة الجيوش الفرنسية، جاءوا وفي أذهانهم صورة مسبقة عن هذا البلد فكانوا ذوي نزعة رومانسية، وما مجيئهم إلا بهدف تجسيد رغبات وأهواء تتم عن رفض لمجتمعهم

الذي كان لا يتماشى مع نظرتهم للعالم، فالصورة التي كانوا يحملونها عن الشرق كانت تتموضع في عالم رمزي وخيالي يذوب في منظومتهم الاجتماعية وثقافتهم الغربية هذا ما نسميه بالخيال الاجتماعي (2).
ينقل سعيد مهداوي عبر فيلمه شهادة كل من السينمائيين، محمد بن صالح وأحمد بجاوي اللذان يعلقان على لوحات المستشرقين، فقد قدم الإستشراق للغرب عالما جديدا بديلا عن العالم القديم، وارتبط في مجال الفن بمصدرين متباينين، أولهما يعتمد على الخيال حين يرى الشرق انطلاقا من الصورة التي تكونت في مخيال الغربيين آنذاك من خلال الأدب الرومانسي، وثانيهما يعتمد على الرؤية المباشرة للواقع الشرقي بعد قيام عدد كبير من الفنانين بزيارة بلدان شرقية والإقامة فيها أوقات طويلة، أمثال دولاكروا و فرومونتان ورنوار وغيرهم من المستشرقين.

وفي رؤية واضحة يصورها الفيلم الوثائقي، من خلال جمع عدد كبير من لوحات المستشرقين الفنية ومن الصور الفوتوغرافية الأولى يؤكد من خلالها على الإساءة والإهانة، الواضحة للفرد الجزائري خاصة المرأة الجزائرية التي أساء إليها المستشرقون كثيرا، فعلى سبيل المثال زار الفنان الانطباعي رنوار الجزائر مرتين نتيجة تأثره بدولاكروا.

ويشاع أن أول لوحة لرينوار هي لوحة " ليزا " التي رسمها عام 1867، محفوظة في متحف السين في ألمانيا، وهي لوحة مرسومة لصديقه " ليزا " وبعد ثلاث سنوات، استخدم رينوار ليزا كموديل للوحة " نساء الجزائر " محفوظة في المتحف الوطني بنيويورك، ومن هنا نستنتج أن غالبية المستشرقين أخذوا من الشرق ما يروي ضماهم الفني بما وجدوا في هذا العالم الساحر، بطبيعته الخلابة، ويضاف إليها المرأة الشرقية التي تصدرت الأعمال الإبداعية والفنية، وفي هذا الصدد تتحدث الوزيرة السابقة مسعدي سكيبة على النظرة التحية للمرأة الجزائرية التي ميزت أعمال المستشرقين (3).



ينتقل المخرج على لسان الباحث والسينمائي أحمد بجاوي للحديث عن بدايات السينما العالمية وكيف صور المستشرقون أولى الصور السينمائية الملتقطة بآلة السينما توغراف مشاهد من قسبة الجزائر من وهران من الجنوب من طرف المصور فيليكس مسيغيش الذي عمل لدى الإخوة لومبار (4) وهكذا ينتقل المستشرق من مجالات الأدب والفن التشكيلي والفن الفوتوغرافي إلى الفن السينمائي، وما قدمه المخرجون المستشرقون من أفلام على أرض الجزائر وهو ما سمي في تاريخ السينما الجزائرية بالسينما الكولونيالية، حين أنتجت أفلاما تعرض حياة أبطال فرنسيين رُفدوا إلى

الجزائر وهي أفلام موجهة للمتلقى الغربي، وليس للمتلقى الجزائري، حيث يروى أن مخرجا سينمائيا وجه له نقد حول سيناريو فيلم قدمه للسلطات المحلية بمدينة الجزائر فأجاب :

" ما الذي يهم، نحن نصنع الفيلم للأوربيين وليس لكم أنتم "، علما أن السائل كان صحفيا من السكان ذوي الأصول الأوروبية مما يدل قطعا أن الأفلام المصورة في الجزائر كانت موجهة للمشاهد الغربي (5).

ينتقل الفيلم في شطره الثاني للحديث عن مخلفات الحرب العالمية الثانية، وعلى لسان السيد رضا مالك رئيس الحكومة الأسبق، يعرض ما اقترفته فرنسا الاستعمارية في حق الشعب الجزائري، الذي خرج في مظاهرات سلمية ليذكر فرنسا بوعودها بالاستقلال، وهي وعود كاذبة ترجمت لمجازر 08 ماي 1945، التي راح ضحيتها أكثر من 45 ألف شهيد، فسقط القناع عن فرنسا المخادعة، وأدرك الشعب الجزائري عدم جدوى النضال السياسي وضرورة اللجوء إلى الكفاح المسلح، وتبلور الوعي الوطني لدى الشعب والحركة الوطنية وأصبح يؤمن أن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأن كل ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، فكانت بداية لتحضير ثورة تحريرية شاملة ومنظمة من 1954-1962، حين يصور المخرج رأي السيد : رضا مالك مقابل رأي الباحث : محمد بن صالح (6) وكأننا به يقول، أن السياسي يحكي والسينمائي يؤكد على وقع موسيقى مصاحبة بعنوان " من جبالنا " أي أن كل من السياسي والسينمائي عزفا على وتر نفس الأنغام، وكان هدفهما واحدا هو تحرير هذا البلد.

يؤرخ فيلم سينمائيو الحرية، لتاريخ السينما الجزائرية ولتاريخ نضال شعب فصح أساليب المستعمر أمام العالم بأسره، حين يمزج المخرج بينما هو تاريخي وسينمائي في إطار تكاملي، ويصور صفحات من تاريخ السينما وكيف كانت أداة نضالية فعالة ألهمت حماس الثوار، ودبت في نفوس المجاهدين الجزائريين روح الشجاعة وقوة التحمل والأمل في تحقيق الحرية والاستقلال.

كما يفضح الفيلم أساليب فرنسا الاستعمارية، الدعائية المعرّضة، من خلال سلاح الصورة لنقل صورة مغايرة وظالمة عن طبيعة هذا المجتمع.

ويعرض أيضا صورا من المعارك الوحشية التي ارتكبتها جنود الاحتلال ضد أفراد الشعب الأعزل، ويعلق عليها رضا مالك، متحدّثا عن المقاومة الشعبية وتاريخها النضالي وتدويل قضية كفاح الجزائر في المحافل الدولية كما جاء في بيان أول نوفمبر، ودور محمد بوضياف وإصداره لجريدة المقاومة الجزائرية السرية الناطقة بلسان جبهة التحرير الوطني.

وكذا معركة الإعلام التي تحدث عنها في الفيلم الوزير الأسبق لمين بشيشي بالتوازي مع دور السينما كوسيلة للمقاومة والتحرر. كما جاءت به شهادة السينمائيين لمين مرباح - عمار العسكري والناقد السينمائي كريم تزاروت (7).

ولا ينكر الفيلم دور المخرجون الأجانب، ممن قاوموا الاحتلال الفرنسي ووقفوا انتصارا لقضية التحرر العادلة، وهنا يؤكد الفيلم على الدور الكبير، الذي لعبه رونييه فوتيه من خلال أفلامه الأولى على غرار " الجزائر تلتهب " 1957 (8) الفيلم الوثائقي الذي عرض خارج الجزائر، وفضح ممارسات الاحتلال الفرنسي في حق الشعب الجزائري، يتحدث الفيلم عن دور المخرج الفرنسي الأصل صديق ثورة التحرير الوطنية في تشجيع السينمائيين الجزائريين لإنتاج أفلام وثائقية ... شهادات للتاريخ يوقعها فلم سينمائيو الحرية، عن دور هذا الرجل وغيره من أصدقاء السينما الجزائرية، جاءت في الفيلم على لسان المخرج السينمائي أحمد راشدي، صاحب رائعة العصا والأفيون.

كما أشاد الفيلم بدور " بيار كليمون " المخرج الفرنسي التونسي الرائد في سينما التحرر وما قدمه من خلال فيلم ساقيه سيدي يوسف 1958، الذي صور الكفاح الوطني مما تسبب في سجنه لعدة سنوات، غير أنه لم يتردد هو الآخر في نقل خبراته السينمائية التقنية للسينمائيين الجزائريين الشبان، وبشكل خاص في مجال التصوير بالكاميرا المحمولة، التي ساعدت السينمائيين الجزائريين على التصوير في المناطق الجبلية، مما جعلهم يسجلون يوميات المجاهدين خاصة في الجبال.

إلى جانب هؤلاء من أصدقاء السينما الجزائرية، برزت أسماء عديد المخرجين الأجانب الذين أثروا إيجابا ودفعوا ثوار الجزائر، ومجاهديها للكفاح الوطني ضد قوى الاحتلال الفرنسي، أمثال المخرجة " دي سيسيل " وما قدمته للثورة الجزائرية عندما قدمت فيلمها لاجئون جزائريون، والتي صورت عبره خروج العائلات الجزائرية التي دمرت قراهم قوى المستعمر الفرنسي نحو الحدود التونسية (9).

تطرق الفيلم أيضا لدور سينمائيو الحرية في الجزائر، وتعاون أصدقائهم من الأجانب ممن ذكرنا نماذج منهم لإنتاج أفلام وطنية تعبر عن قضية الكفاح الوطني، بعيدا عن الأفلام الدعائية التي يصنعها المحتل الأجنبي حين ترجمت بتأسيس مصلحة السينما التابعة لجيش التحرير الوطني على يد رونييه فوتيه-محمد قنز-أحمد راشدي - جمال شندرلي وعلي ضاوي صاحب فيلم " أبناء الجزائر " والذي استشهد أثناء التصوير (10)، وقد كان أول إنتاج لهذه المصلحة فيلم " جزائري " 1959 و" ياسمين " 1960 من إخراج الثنائي محمد لخضر حمينة وجمال شندرلي حين يقف مخرج الفيلم مطولا عند فيلم " ياسمين " (11) وما خلفه الاحتلال من خوف ورعب على شريحة الأطفال والنساء معا.

وفي ختام الفيلم، يؤكد المخرج سعيد مهداوي، وعلى لسان كل من أحمد راشدي وأحمد بجاوي على دور السينمائيين، في مسيرة الكفاح الوطني في الجزائر، ذلك أن السينما الجزائرية أفرزتها ظروف الحرب فولدت من رحم ثورة التحرير الوطني، حيث نخلص إلى أن مخرج الفيلم خلد أبرز الأسماء السينمائية الجزائرية والأجنبية التواقفة للحرية عبر فيلم وثائقي يؤرخ فيه للتاريخ والسينما معا.



الهوامش

- 1 - Gabriel Esquer, L'Algérie Vue Par Les Écrivains, ED Simoun, Paris, 1956, P 61.
- 2 - بلميلود عثمان، صورة الصحراء الجزائرية بين إيتيان دينيه و إليزابيث ابراهارت أطروحة ماجستير في الأدب المقارن جامعة وهران 2001.
- 3 - سعيد مهداوي، فيلم سينمائيو الحرية، إنتاج التلفزيون الجزائري، 2011.
- 4 - Lotfi Maherzi, Le Cinéma Algérien, ED SNED, 1978, P 62
- 5 - بغداد أحمد بلية، فضاءات السينما الجزائرية، نظرة بانورامية على تاريخ السينما في الجزائر، منشورات ليجوند، 2011، ص 17.
- 6 - سعيد مهداوي، فيلم سينمائيو الحرية.
- 7 - سعيد مهداوي، فيلم سينمائيو الحرية.
- 8 - رونييه فوتيه، فيلم الجزائر تلتهب، إنتاج جبهة التحرير الوطني، 25 د، 16 ملم، 1957.
- 9 - سعيد مهداوي، فيلم سينمائيو الحرية.
- 10 - عدة شنتوف، السينما الجزائرية بين الأمس واليوم، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2012، ص 18
- 11 - سعيد مهداوي، فيلم سينمائيو الحرية.